ترغيب وترهيب

ألا إن سلعة الله غالية

عمر بن محمد شفيق
الجامعة السلفية، بنارس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

إن الله جل وعلا جعل الدنيا دار ممر وعبور، وجعل الآخرة دار قرار وسكون، فمن أحسن في الدنيا وعمل فيها الصالحات وجعل هواه تبعا لمرضاة الله عز وجل أثابه الله وأدخله الجنة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ومن أساء في الدنيا وعمل فيها السيئات وأتبع نفسه هواها وجد جزاء عمله في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

ولما كانت الجنة هي المقصد الأسنى والمطلب الأسمى لكل مؤمن ومؤمنة، ولأجله يتسابقون إلى الخيرات ويسارعون إلى الطاعات، أوضح الله طريقها وجلى سبيلها ليهتدي إليها المؤمنون، ويدركها المتقون، وقد جعلها الله سبحانه وتعالى محفوفة بالمكاره ومحجوبة بالمشاق، ابتلاء لعباده واختبارا لهم، لكنه وصفها بأوصاف ونعتها بنعوت لا يسمع بها أحد إلا طمع فيها وأراد نيلها وحصولها، فإن كان صادقا في طلبها جاهد في سبيلها، وإن كان كاذبا اكتفى بالأماني.

إن الجنة هي أغلى السلع وأثمنها، وقد جعل الله ثمنها أغلى ما عند الإنسان وأنفس ما يمتلكه وهو النفس والمال، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، فجدير بالمؤمن أن يسعى لحصول هذه السلعة

العظيمة وأن يجتهد في إدراكها، وليستبشر بهذا العقد العظيم الذي عقده معه ربه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ١١١] .

"ولما علم الموفقون ما خلقوا له وما أريد بإيجادهم رفعوا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رفع لهم فشمروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول ولا ينفذ، بصُبابة عيش، إنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنُّغَص ممزوج بالغُصَص، إن أضحك قليلا أبكى كثيرا، وإن سر يوما أحزن شهورا، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعاف مسراته، أوله مخاوف، وآخره متالف" [حادي الأرواح لابن القيم ص٩]

هذه السلعة الغالية تنال بالتعب والمشقة، وبذل الغالي والثمين، والخوف من مقام الله عز وجل، ومجاهدة النفس والهوى، لا بالتمني والتشهي، ولا بإيثار الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، (﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

من أراد الجنة فعليه بالهروب من المعاصي، وخشيتها خشية الضراغم والوحوش، وأن لا يستجيب لمكايد الشيطان ولا لأماني النفس الكاذبة، وليكن قوي التعلق بربه، شديد الاعتصام به، كثير الاستعاذة من شر النفس والشيطان، وليجعل الخوف ردائه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة" [أخرجه الترمذي برقم (٢٤٥٠) وقال: هذا حديث حسن غريب].

قال الرامهرمزي: "هذا من أحسن كناية وأوجزها وأدلها على معنى لا يتعلق بشيء من لفظه، ومعناه: من خاف النار جد في العمل، ومن جد في العمل وصل إلى الجنة، فجعل خائف النار بمنزلة المسافر الذي يخاف فوت المنزل فيرحل مدلجا. والإدلاج: السير من أول الليل.

وجعلت غالية لشرفها وسَروِها، ولأنها لا تنال بالهوينى والتقصير، إنما تنال بمجاهدة النفس، ومغالبة الهوى، وترك الشهوات" [أمثال الحديث ص١٢٠].

الخوف من الله هو شعار المؤمنين، وسمة المتقين، وهو من أرفع المنازل، وأجل المقامات، وإذا خلا القلب من الخوف فسد، وضل صاحبه، وأصبح أسيرا لشهواته، وحبيسا لأهوائه، لا يرتدع عن ذنب، ولا يكف عن معصية، والله المستعان.

وإذا امتلأ قلب العبد خوفا تقرب إلى الله بفعل الطاعات واجتناب المنكرات، وسوف يكون في ظل الله عز وجل يوم القيامة إن شاء الله، فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: "ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله" [أخرجه البخاري برقم (٦٦٠) ومسلم برقم (١٠٣١)].

ومن أراد الجنة فليجاهد على مخالفة الهوى، فإن اتباع الهوى داء خطير، يهلك العبد ويفسد عليه دنياه وآخرته، ودواؤها المجاهدة، والاستجابة لأوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومن استجاب لجميع ما تدعوه إليه نفسه فقد اتخذ إلهه هواه، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى
فقد ثكلته عند ذلك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه
وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يزع النفس اللجوج عن الهوى
من الناس إلا حازم الرأي كامله

واتباع الهوى يبطل الأعمال، ويهوي بصاحبه في النار، ويخرجه من الإيمان وهو لا يشعر، وهو سبب للذل والهوان في الدنيا والآخرة، وقد سئل أحد الحكماء عن الهوى فقال: هوان سرقت نونه.

نون الهوان من الهوى مسروقة
فإذا هويت فقد لقيت هوانا
ليت شعري كيف يسعى طالب

الجنة خلف الشهوات، ويضيع أوقاته في الملاهي والملذات؟ وكيف يسهو عن الصلوات ويغفل عن الواجبات؟ وكيف يرتكب الموبقات ولا يرجع إلى رب الأرض والسماوات؟ كيف يجري خلف دنيا زائلة منقضية وحياة فانية مضمحلة؟

والله لو أن القلوب سليمة
لتقطعت أسفا من الحرمان
لكنها سكرى بحب حياتها الد
نيا وسوف تفيق بعد زمان

أيها القارئ الكريم! إن التجارة مع الله هي أربح التجارات، الخسارة فيها معدومة، والربح فيها بغير حساب، وقد أخبر الله جل وعلا عن هذه التجارة في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، هذه التجارة هي أنفع التجارات، وعاقبتها الفوز برضا الله عز وجل، ودخول الجنة بفضله وكرمه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وبإزاء هؤلاء طائفة أخرى لم تربح تجارتهم، وهم الذين آثروا الضلالة على الهدى، والغواية على الهداية، والكفر على الإيمان، والظلام على النور، واستحبوا العمى على الهدى، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

إن دخول الجنة هو الفوز والنجاح، ودخول النار هو الخيبة والخسار، ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فليجتهد ملتمس الفوز قبل فوات الأوان، قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] .

***